Dirasat: Human and Social Sciences, Volume 50, No. 5, Supplement 1, 2023

Deanship of Scientific Research

Prince Mawdud Atabak Al-Mosul and his Role in Fighting Against the Crusader Invasion 501 AH – 508 AH / 1108 AD – 1113 AD

Hussein Raja Al-Shouqirat**[1], Khaldoun Khalil Al-Habashneh[2], Mohammad Abed Al-Hadi Saleh Aljazi[1]

[1]Department of History and Geography/ Faculty of arts/ AlHussein bin Talal University/ Ma'an/ Jordan

[2]Department of Basic Sciences (Humanities and Scientific) / Faculty of arts / Al-Zaytoonah University of Jordan/ Amman / Jordan

Received: 27/2/2022
Revised: 26/9/2022
Accepted: 25/10/2022
Published: 30/10/2023

* *Corresponding author:*
hshm_raja@yahoo.com

Citation: Al-Shouqirat, H. R. ., Al-Habashneh, K. K. ., & Aljazi , M. A. A.-H. S. (2023). Prince Mawdud Atabak Al-Mosul and his Role in Fighting Against the Crusader Invasion 501 AH – 508 AH / 1108 AD – 1113 AD. *Dirasat: Human and Social Sciences*, 50(5), 256–266. https://doi.org/10.35516/hum.v50i5.688

© 2023 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

Objectives: The current study aims to elucidate the role of Prince Mawdud in resisting the Crusader invasion and adopting the Jihad policy against the Crusader forces in the Islamic Al-Mashriq (the Islamic Eastern part of the Arab world).

Method: To achieve the study objectives, the analytical approach is used in examining the events of the study period and the most important interactions shaping the history of the Al-Mashriq region The information included in the relevant sources, were analyzed.

Results: The results show that Sharaf Al-Din Mawdud played a complementary role to previous Emirs of Mosul in countering the Crusader tide. The findings reveal that Sharaf Al-Din Mawdud advocated for an Islamic alliance, contributing to the founding of the resistance against the Crusader invasion in the Islamic Al-Mashriq and setting the stage for future leaders to continue this approach. Mawdud's Atabekiya marked a crucial turning point in the Crusader struggle, and his efforts led to the unification of Islamic forces under Salah Al-Din's leadership, resulting in his ultimate sacrifice for his unwavering stance.

Conclusion: The study recommends investigating various Islamic figures having a great impact on the formulation of the history of the Islamic Al-Mashriq region by re-examining the texts incorporated into the sources.

Keywords: Mawdud, Crusader invasion, Atabekiya, Imaret Al-Raha, Salajeka.

الأمير مودود أتابك الموصل ودوره في مقاومة الغزو الصليبي (501هـ-508هـ/ 1108م-1113م)

حسين رجا الشقيرات[1]*، خلدون خليل الحباشنة[2]، محمد عبد الهادي صالح الجازي[1]

[1]قسم التاريخ والجغرافيا، كلية الآداب، جامعة الحسين بن طلال، معان، الأردن

[2] قسم العلوم الأساسية (الإنسانية والعلمية)، كلية الآداب، جامعة الزيتونة، عمان، الأردن

ملخّص

الأهداف: جاءت الدراسة لتسليط الضوء على دور الأمير مودود في مقاومة الغزو الصليبي وتتبع دوره في تبني سياسة الجهاد ضد القوى الصليبية في المشرق الإسلامي.

المنهجية: ولتحقيق أهداف الدراسة اعتمدت الدراسة على تطبيق المنهج التحليلي في دراسة أحداث فترة الدراسة والوقوف على أهم التداخلات التي صاغت تاريخ منطقة المشرق الإسلامي من خلال تحليل المعلومات التي وردت في بطون المصادر ذات الصلة. وإعادة قراءة نصوص تلك المصادر وفحصها بطريقة تخدم أهداف الدراسة.

النتائج: جاء دور "شرف الدين مودود" مكملًا لدور من سبقه من أمراء الموصل في التصدي للمد الصليبي، وقد سار على نهجهم في الدعوة إلى تشكيل تحالف إسلامي لتحقيق هذه الغاية، وبذلك يكون ممن أسس لمقاومة الزحف الصليبي على المشرق الإسلامي، ومهد الطريق لمن جاء بعده لاستكمال هذا النهج. وقد خلصت الدراسة إلى أن أتابكية مودود على قصرها كانت نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي. وقف فيها مودود مدافعًا عنيدًا في وجه الخطر الصليبي على الشام حتى أثمرت جهوده في توحيد القوى الإسلامية واندماجها فيما بعد تحت راية صلاح الدين حتى دفع حياته ثمنًا لمواقفه تلك .

التوصيات: ضرورة إعادة النظر في دراسة الكثير من الشخصيات الإسلامية التي كان لها التأثير الكبير في صياغة تاريخ منطقة المشرق الإسلامي من خلال إعادة فحص ما ورد من نصوص في المصادر.

الكلمات الدالة: مودود، الزحف الصليبي، الأتابكية، إمارة الرها، السلاجقة.

المقدمة:

جاء دور " شرف الدين مودود" مكملا لدور من سبقه من أمراء الأراتقة حكام إمارة الموصل ممن تصدوا لمواجهة المد الصليبي (الافرنجي)، وقد سار على نهجهم في ذلك والدعوة لتشكيل تحالف إسلامي يواجه ذلك المد، وبذلك يكون مودود ممن عمل على تأسيس مقاومة إسلامية لمواجهة ذلك التحدي حتى دفع حياته ثمنا لمواقفه ومبادئه التي آمن بها، ممهدا الطريق لمن جاء بعده لاستكمال دوره في المقاومة، والدراسة في مجملها ماهي الا محاولة مركزة لبيان ذلك كله.

لقد تعاقب على حكم إمارة الموصل بعد سنة 489هـ عدد من الأمراء السلاجقة اشتهر منهم الأمير مودود بن التونتكين، وقد بدأت ولايته على الموصل عندما اختاره السلطان محمد السلجوقي للقضاء على عصيان أميرها جاولي سقاوة وذلك في عام 502هـ (ابن القلانسي:تاريخ، ص161؛ ابن الأثير:الكامل،ج10،ص456).

كان العالم الإسلامي في تلك الفترة يتعرض لاجتياح الصليبين لبلاد الشام ونجاحهم في إقامة أربع إمارات صليبية فيها، وقد ساعدهم على ذلك حالة الإنقسام المذهبي والتفكك السياسي التي أصابت العالم الإسلامي آنذاك. وبذلك يمكننا القول أن ما اصابه الصليبيون من نجاح في غزوهم للعالم الإسلامي إنما يعود في الأساس إلى فرقة المسلمين وعدم توحدهم في جبهة واحدة ضد ما يحيق بهم من اخطار.

برز دور الأتابك مودود من بين الأمراء السلاجقة الذين بذلوا جهودا مخلصة في مناهضة المد الصليبي. وقد عرف بالتقوى والورع والتمسك بفكرة المقاومة فلم يتردد في تلبية أي نداء او استغاثة ضد الصليبيين، فقضى مدة حكمه القصيرة في الموصل في مواجهة مستمرة مع خصومه من الصليبيين(الإفرنج).

لقد نجح الأتابك مودود في قيادة حركة المقاومة ضد الوجود الصليبي مبرزا دور إمارة الموصل في تلك المقاومة، كما وحد الجبهة الإسلامية في العراق والشام في وجه الغزاة، وقد ثبت اهمية تلك الوحدة في مجابهة اعدائها، وتبنى سياسة تقوم على التسامح مع رعيته انعكست على علاقاته مع أمراء وحكام المسلمين فانتشر الأمن والاستقرار في ولايته، محاولا رسم الطريق لمن جاء بعده للاستمرار في خط المقاومة. ولعل جهود عماد الدين زنكي فيما بعد تصب في هذا الاتجاه.(ابن القلانسي: تاريخ، ص169؛ ابن شداد: الأعلاق،ج3،ق1،ص54؛ سبط ابن الجوزي: مرآة، ج8،ق1،ص31).

لقد اجمع جل المؤرخون على اهمية الدور الذي لعبه الأتابك مودود في التأسيس للمقاومة فوصفه شارتر بالقوي العظيم حاد الذكاء في حين وصفه متى الرهاوي بالمحارب المغوار، أما إبن الأثير وابن القلانسي فقد وصفوه بأنه عادلا كثير الخير والصدقات. فلا عجب إذن أن يحمل لقب شرف الدين.(فوشيه الشارتري:تاريخ الحملة الى القدس،ص147؛ الرهاوي: تاريخ،ص174؛ مؤلف سرياني رهاوي: الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية، ج2،ص471؛ ابن الأثير: الكامل،ج1،ص471؛ ابن القلانسي: تاريخ، ص164).

من هو الأتابك مودود؟:

هو شرف الدولة مودود بن التونتكين أمير الموصل أحد أمراء السلاجقة العظام، تركماني الأصل من الاتراك، وشخصية مودود لم تحقق في معظم كتب التراجم الإسلامية من حيث تاريخ مولده، ومن حيث النسب هناك من يرجح أنه أخ للسلطان محمد السلجوقي (498-512هـ/ 1104-118م) ومنهم من يقول أنه ابن أخ قوام الدولة كربوقا حاكم الموصل (490هـ-496هـ/ 1096-1102م) وهذه الأقوال لم تقم على أدلة، في حين يشير كل من أبو الفدا وابن الأثير إليه باسم مودود بن التونتكين أو التوتناش وكلاهما مجهولان. (أبو الفدا: المختصر، ج2، ص224؛ ابن الأثير: 1980م:ج8: ص211). وعموما هو ممن تصدى للمد الصليبي(الإفرنجي) في المشرق الإسلامي، وحقق الانتصارات عليهم، وممن عمل على وحدة الصف الإسلامي في بلاد الشام، وصفه ابن الأثير بقوله "وكان خيّرًا، عادلًا، كثير الخير". (ابن الأثير: الكامل: ج8: ص211).

ظهر اسمه لأول مرة عندما أرسله السلطان محمد السلجوقي إلى إمارة الموصل لتخليصها من يد حاكمها جاولي سقاو، الذي اتصف بسوء الخلق، ووحشية التعامل، حتى كرهه عامة الناس، ولعل ما دفع السلطان محمد السلجوقي لإرسال مودود للموصل إعلان جاولي الإستقلال عن السلطان السلجوقي وقطع الصلات به، مما دفع السلطان محمد لأن يعهد في شهر ذي القعدة عام 501هـ/1108م إلى مودود بن التونتكين ليتولى مهمة التصدي لجاولي وطرده من الموصل وتولي ادارة شؤونها بدلا منه. Fink:1969.P369) ؛ ابن العديم: زبدة الحلب،ج2، ص156؛ سبط: مرآة،ج8،ق1، ص37؛ ابن شداد: الأعلاق، ج3،ق1، ص420).

مودود أميرا للموصل:

وصل مودود مدينة الموصل وحاصرها، ولقي مقاومة من جاولي وجنوده، وعلى الرغم من تحذير جاولي لعامة الناس من الإقتراب من الأسوار، والتشديد عليهم في ذلك، لكن عامة الناس تعاهدوا على فتح الأبواب، مستغلين وقت صلاة الجمعة وتواجد الناس بالمساجد، فخرجوا إلى أحد الأبراج، وقتلوا حرّاسه، وفتحوا الأبواب مرددين الهتافات بإسم السلطان محمد، فهرع إليهم جند السلطان بقيادة مودود، ودخلوا المدينة ودار القتال

مع جنود جاولي، ونجحوا في الاستيلاء على المدينة، فهرب جاولي إلى الجزيرة وهناك جمع حوله جميع أعداء الدولة السلجوقية، بل وبلغ به الأمر الى حد محالفة القوى الصليبية (الإفرنجية) المجاورة، فأطلق سراح أمير الرها بلدوين الثاني دي بورج، ودخل معه في حلف ضد السلاجقة. وجراء ذلك دخل مودود الموصل ورحب به السكان وذلك في شهر صفر من عام 502هـ/ عام 1108م. (ابن القلانسي: 1908: ص160؛ ابن الأثير: الكامل، ج10،ص470؛ سبط:مرآة،ج8،ق1، ص35؛ ابن العديم: زبدة،ج2،ص154).

ومنذ القرن الثاني عشر الميلادي كانت الموصل أتابكية مستقلة. وعلى عاتق حاكمها تقع مهمة مواجهة الصليبيين ومواجهة حركات التمرد والعصيان في اعالي دجلة والولايات الشامية. ويحكم أتابك الموصل بعدّه ممثلا للسلطان السلجوقي. ولعل موقع الموصل هو الذي اكسبها اهميتها في تلك الفترة بعدّها مفتاحا للرها. وبالتالي كان على حاكمها التصدي للجهاد الإسلامي. (ابن الأثير: الكامل، ج8: حوادث سنة 500هـ؛ أبو المحاسن: النجوم، ج5، ص196)

لقد تتابع على أتابكية الموصل الكثير من الحكام الذين لم يكونوا بحجم المهام المسندة اليهم فيما يتعلق بالجهاد الإسلامي. فاتصفوا بالجمود امام تحركات الفرنجة وتوسعاتهم في شمال العراق والشام وشرق اسيا الصغرى. فدب النزاع بين الأخوين بركياروق ومحمد ابني ملكشاه واستمر ثلاث سنوات 495هـ/ 1101م/ 498هـ/1104 م حتى انتهى هذا النزاع بعقد الصلح بينهما وتقاسم مناطق النفوذ.(الرهاوي: تاريخ، ص174؛-cit.T1899 .Michel les Syrien"op- 1810.p.195) وهكذا كانت مهمة تعيين اتابك الموصل تقع على عاتق السلطان محمد السلجوقي، وبعد وفاة اتابكها بركوقا 496هـ/1102م اصبحت تشكل مصدر نزاع وصراع بين الأمراء الترك والتركمان. وفي سنة 500هـ/1106م الحقت الموصل مع إمارتي الجزيرة وديار بكر بجاولي سقاو الذي كان يسيطر على البلاد بين خوستان وفارس، كما تولى السلطان محمد السلجوقي جاولي سقاو كل بلد يفتحه. فاستولى على الكثير من البلدان والأموال وظهرت لديه نوازع التمرد وسار بأهل الموصل سيرة سيئة. حتى وصل به الأمر للاتصال بالصليبيين(الإفرنج). ولما كان مودود يعمل تحت امرة السلطان محمد السلجوقي وازاء سوء سيرة جاولي في الموصل قرر السلطان إرسال مودود لتأديب جاولي فكان هذا أول ظهور لشرف الدين مودود الذي اخذ نجمه يلمع فيما بعد. (سبط: مرآة،ج8،ق1،ص30؛ ابن الأثير:1963:ص 16).

اخذ مودود يتجهز لقتال جاولي وخرج على رأس قوة ووصل الموصل في رمضان من عام 501هـ، حيث كان جاولي في حروب خارجية تاركا زوجته في المدينة المحصنة بسور كبير ومعها حامية عسكرية تقدر بألف وخمسمائة من الجنود الأتراك. (ابن القلانسي:ص161)

والعجيب أن زوجة جاولي قد اساءت معاملة من بقي معها من الجند الأتراك ما دفعهم للخروج عليها وفي ذلك يقول إبن الأثير في وصف الموصل " فتمادى الحصار بأهلها من الخارج والظلم من الداخل حتى آخر المحرم". (ابن الاثير: ج8، حوادث سنة 500هـ). وصل مودود المدينة وحاصرها حتى جرى تسليمها. فنادى بالناس بالسكون والأمن. وأن يعود الناس لدورهم واملاكهم واعطى الأمان لزوجة جاولي وتولى حكم الموصل أتابكا للسلطان محمد السلجوقي وذلك عام 502هـ/1108م. (عاشور: 1978، ج1، ص377).

كان وصول مودود إلى السلطة في الموصل بداية استكمالا لحركة الجهاد الإسلامي التي وضع أسسها من سبقه من الأمراء السلاجقة وأكملها بعده عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود حتى وصلت لصلاح الدين. وقد عمل مودود على تثبيت اركان حكمه في الموصل منذ أن وصلها، وهنا تغفل المصادر الحديث عن أخباره إلى عام 503هـ/1109م عندما أمره السلطان محمد بالخروج لجهاد الصليبيين (الفرنجة). (وليم الصوري:تاريخ،ج1،ص530؛ ابن الأثير:الكامل،ج10،ص485).

الأمير مودود يؤسس لمقاومة المد الصليبي(الإفرنجي):

إن ما اصابه الصليبيون من نجاح في غزوهم للعالم الإسلامي لم يكن ليتحقق لولا فرقة وانقسام المسلمين وعدم توحدهم في جبهة واحدة في وجه اعدائهم، بل على العكس من ذلك لم يجد الغزاة الصليبيون (الإفرنج) أمامهم سوى قوى متناحرة في بلاد الشام وآسيا الصغرى، فامتد نشاطهم حتى وصل اعالي الجزيرة وحدود مصر. (فاحرقوا الأخضر واليابس، واقترفوا الفواحش، وارتكبوا من الجرائم البشعة ما تقشعر له الأبدان، وتشمئز من هولها النفوس، ولم يفرقوا بين المحاربين والنساء والشيوخ والأطفال، فقتلوا ونهبوا وعاثوا فسادا في البلاد التي حلوا بها. (نسيم جوزيف: 1963م، ص 230).

وقد بذل أمراء الموصل السلاجقة جهودا مخلصة في مناهضة الصليبيين، فساهموا مساهمة فعالة في المعارك التي دارت بين المسلمين والإفرنج في بلاد الشام، ووقفت عساكر الموصل والجزيرة العراقية جنبا إلى جنب مع عساكر الشام لتؤدي دورها في الدفاع عن العالم الإسلامي في وجه ذلك المد الغاشم. وقد عرف من بين هؤلاء الأمراء الأمير مودود الذي عرف بالتقوى والورع والتمسك بفكرة الجهاد الديني، فلم يتردد في تلبية أي نداء أو استغاثة ضد الصليبيين، فقضى مدة حكمه القصيرة في الموصل في جهاد متواصل ضد الإفرنج، حتى وصفه أبا المحاسن بأنه" من خيار الملوك دينا وشجاعة وخيرا".(ابو المحاسن:1930،ص 207).

أعاد الأمير مودود ترتيب أمور إمارة الموصل، ونجح في اخماد الفتن التي مرت بها الإمارة سابقا، فنشر العدل والرحمة؛ فكسب محبة الناس وطاعتهم له، ووضع مودود لنفسه خطا يرتكز على التأسيس لإيجاد مقاومة للمد الصليبي (الإفرنجي) تقوم على توحيد كافة الجهود، وتجميع

الجهات، والحرص على رص الصف الإسلامي فبدأ في مراسلة من حوله من الأمراء لتجميع جيوشهم تحت راية واحدة، ولهدف واحد وهو طرد الصليبيين (الفرنجة) ومقاومة وجودهم في العالم الإسلامي. فكانت إجراءاته تصب في إعادة ترتيب البيت الإسلامي، تلك الإجراءات التي اصطدمت بواقع التشرذم الإسلامي الذي وقف عائقا امام طموحات مودود. (ابو المحاسن: 1930: 207)

حملة مودود الأولى ضد الرها(503هـ/1109م):

افتتح مودود عهده في الجهاد بالحملة على الرها، حيث كانت هذه الإمارة تشكل خطرا كبيرا على خطوط المواصلات الإسلامية بين الموصل وحلب. وبين بغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى. وكانت غارات الصليبيين تنطلق منها إلى سائر بلاد الجزيرة فشملت آمد، وماردين، ونصيبين، والرقة حتى غدت تلك الإمارة بمثابة إسفين دقه الإفرنج بين الشام والعراق. ولهذا استهل مودود عهده بعقد تحالفات مع أمراء المسلمين في الجزيرة وبلاد الشام الشمالية بقصد جهاد الإفرنج مستهلا نشاطه بحصار الرها (ابن القلانسي: تاريخ، ص169؛ابن العديم: زبدة، ج2، ص150؛ الرويضي: امارة الرها، ص 383؛ حتي فيليب: 1953: ج3: ص762).

ساد النزاع الداخلي بين الصليبيين(الفرنجة) في فترة تولي مودود لإمارة الموصل، وازاء تبني مودود لفكرة الجهاد ضد الوجود الصليبي ادرك الأمراء الصليبيون اهمية التوافق فيما بينهم، فتدخل الملك بلدوين الأول بوصفه زعيما للصليبيين في المشرق واجتمع بالأمراء الصليبيين وقرر تقسيم الإرث بين الأمراء وحثهم على ضرورة حرب المسلمين. وقد قاد مصرع احد هؤلاء الأمراء وهو (وليم جوردان) إلى تعقيد المشهد حيث انتقلت أملاكه إلى الأمير (برتراند) الذي اعترف بالملك بلدوين الأول سيدا عليه فقط دون سواه. وقد أدى ذلك إلى إقدام تانكريد على مهاجمة (جبلة) التابعة لبني عمار فاستولى عليها 502هـ/1109م فاضحت حدوده مجاورة لأملاك برتراند.(Stevenson:1907:p88))

وفي أثناء ذلك شكل مودود حلفا إسلاميا من جيرانه الأمراء المسلمين هدفه جهاد الصليبيين، ثم قاد حملة عسكرية (503هـ/1110م) هدفها انتزاع مدينة الرها، وقد ضم الحلف الإسلامي كل من إيلغازي الأرتقي أمير ماردين مصحوبا بعساكره من التركمان، وسكمان القطبي أمير أرمينيا المعروف بشاه أرمن. ولعل هذه الحملة هي الأولى من نوعها من حيث عدد المتحالفين من الأمراء المسلمين، ولهذا تعد فاتحة عهد جديد في مواجهة المد الصليبي يقوم على الوحدة والاتفاق بعد أن سادت الفرقة والاختلاف. (ابن القلانسي: تاريخ، ج2، ص169؛ابن العديم: 1954: ج2: ص154؛ الرويضي، إمارة، ص 383؛ رنسيمان:1960: ص 187).

وما إن علم الصليبيون في الرها بحشود المسلمين حتى تجمع كل من بلدوين الأول لمناصرة بلدوين الثاني ومعه برتراند أمير طرابلس ومعهم بعض زعماء الأرمن وعلى رأسهم كوغ باسيل صاحب كيسوم ورعبان. فوصلت جموعهم إلى الرها في تموز من عام503هـ/1110م. وهنا لابد من الإشارة إلى التذبذب في مواقف الأرمن من الصراع الصليبي الإسلامي الذي لم يكن يتبع جهة معينة أو يتبع الحياد على اقل تقدير. ولا بد من الإشارة أيضا إلى الخلاف والإنقسام بين أمراء الإفرنج ذلك الإنقسام الذي عزز من موقف القوات الإسلامية المحاصرة للرها.

فرض مودود حصارا على مدينة الرها لمدة شهرين دون أن يتمكن من اقتحامها، ولعل استحكام تحصيناتها حال دون اختراقها، وبوصول المدد من جيش بيت المقدس اضطر مودود لرفع حصاره عن الرها والتراجع تكتيكيا إلى حران حيث انضم اليه طغتكين أتابك دمشق.(Fink:1969.P.20) ؛ مؤلف سرياني رهاوي (زكار)، ج2، ص470؛ العظيمي: تاريخ، ص380؛ الشارتري، ص147؛سبط: ص31).

وقد قرر الملك بلدوين مطاردة الجيوش الإسلامية. وقد عمد لتحقيق ذلك بالعمل على توحيد كلمة الصليبيين فعقد مصالحة بين بلدوين الثاني أمير الرها وتانكريد صاحب انطاكية. وكان انسحاب مودود انسحابا تكتيكيا يهدف إلى إبعاد الصليبيين عن قاعدتهم ثم تطويقهم. غير أن عملية المطاردة توقفت فجأة بعد أن انفرط التحالف الصليبي. ويبدو أن هناك عدة عوامل تضافرت وأدت في النهاية إلى انفراط عقد التحالف الصليبي وتوقف المطاردة ولعل اهمها: تلقي بلدوين الأول تحذيرا مبكرا حول خطة الأتابك مودود في أثناء حصاره لقلعة شناو إلى الشمال الغربي من حران, كما تلقى انذارا من بيت المقدس عن تحرك فاطمي ضد بيروت ما اجبره على التخلي عن الحملة. إضافة إلى رواج شائعات في الأوساط الصليبية حول نية رضوان صاحب حلب لمهاجمة انطاكية في ظل غياب أميرها مما دفع بتانكريد للتخلي عن الحملة ايض (الشارتري: ص146؛ابو المحاسن: النجوم،ج5، ص195؛ ابن القلانسي: ص170؛رونسيمان: ص189). ويلاحظ هنا أن قادة الإفرنج قد اجتمعوا لمواجهة الخطر الإسلامي الذي يهدد الرها متناسين خلافاتهم وأحقادهم، ولابد من الإشارة هنا إلى انضمام الأرمن للتحالف الإفرنجي المذكور. (الرويضي: إمارة، ص387).

وعليه احتفظ بلدوين بحاميات عسكرية في كل من الرها وسروج وبعض القلاع الصغيرة بعد أن أوعز للسكان بالجلاء نحو الجهات الواقعة على الضفة اليمنى من نهر الفرات، في حين اكتفى مودود بمهاجمة مؤخرة الصليبيين العابرين وعاد إلى الموصل بعد أن حصل على عدد كبير من الأسرى والغنائم والسلاح. وقد نجح مودود في نصب الكمائن للقوات الصليبية التي استدرجها بعيدا عن قواعدها العسكرية غير أن قادة الإفرنج أدركوا حقيقة تدابير مودود ولهذا اتجهوا باتجاه قلعة شناو التي هاجموها وعاثوا فيها قتلا ودمارا (ابن القلانسي:169؛الشارتري:134؛ وليم الصوري:ج1،ص530 ابن العديم:ج2، ص154).

كان مودود آنذاك مع عسكره في حران، فاجتاحت قواته المزارع والقرى المسيحية حتى الفرات، وما أن علم بعبور الصليبيين للنهر، وتأخر عدد كبير من الأرمن في انتظار دورهم للعبور للضفة اليمنى من الفرات، حتى سارع لاغتنام الفرصة فهاجمهم وقتل عددا كبيرا منهم " وغنم المسلمون سوادهم واثقالهم وأتوا على العدد من اتباعهم قتلا وأسرا وتفريقا في الفرات وامتلأت الأيدي من الغنائم والاسلاب والسبي والدواب". (وليم الصوري:ج1،ص529؛ الشارتري:145؛ ابن العديم:ج2: ص 155).

وحاول صاحب الرها الانتقام من مودود فعاد في كتيبة من العسكر، إلا انه وجد نفسه غير قادر على مهاجمة المسلمين لتفوقهم في العدة والعدد، فدب اليأس في نفوس الصليبيين، وكاد بلدوين دي بورج يتعرض للهلاك لولا اسراع بلدوين الأول وتانكريد لإنقاذه. وقد أدرك قادة الإفرنج عدم الجدوى من مهاجمة المسلمين وعدم قدرتهم على حماية إمارة الرها ولذلك اتخذوا تدابير قبل رحيلهم عنها منها تزويد مدن وحصون وقلاع الإمارة بالمؤن والسلاح والرجال بما يضمن عدم مهاجمة المسلمين لها، ومن التدابير أيضا تهجير الأرمن وغيرهم من سكان القرى والأرياف والضياع المفتوحة المعرضة لهجمات القوات الإسلامية وتوطينهم على الجهة الغربية للفرات، ولعل هذه التدابير جاءت نتيجة لما ألحقه مودود وقواته بإمارة الرها ومحاصيلها من الدمار والخراب (الصوري: ج528،1؛ الشارتري: 145؛ ابن العديم: زبدة، ج2، ص155؛ الرويضي: إمارة، ص 391؛ رونسيمان:ج2: ص190-191).

لقد كانت حملة مودود الأولى على الرها 503هـ/1111م استجابة لطلب السلطان محمد السلجوقي باستئناف الجهاد ضد الصليبيين وقد شارك في هذه الحملة أمراء الأطراف المسلمين رغبة منهم في مواجهة المد الصليبي، ومع أن هذه الحملة لم تكن فاصلة، لكنها تركت انطباعًا إيجابيًّا وعاد مودود إلى الموصل، والأمراء إلى اماراتهم. والأمل يحدوهم نحو التغيير المنشود والممكن إذا توحدت أهدافهم.

لقد حقق مودود في حملته الأولى على الرها انتصارا على الإفرنج والأرمن معا، كما نجح في إجبارهم على الإنسحاب منها وفرض حصارا جديدا عليها غير أن منعة اسوارها وحصانتها وشحنها بالمؤن والميرة اجبرت القوات الإسلامية على العودة إلى حران حيث رتبوا فيها قوة إسلامية لمراقبة تحركات الإفرنج في الإمارة. ومن نتائج هذه الحملة أنها انهت جميع الخلافات بين قادة الإفرنج ووحدت صفوفهم وفسحت المجال أمام ملك بيت المقدس ليكون الوسيط لإنهاء تلك الخلافات حتى اصبحت الإمارات الإفرنجية في شمال الشام والجزيرة تابعة له، كما احدثت الغارات الإسلامية خرابا ودمارا جعل الإمارة مجرد حامية أو مركزا محاط بالقوى الإسلامية. (الصوري:ج1، ص530؛ابن الأثير:الكامل، ج10، ص485؛ الشارتري:147؛ الرويضي، إمارة، ص394).

حملة الأتابك مودود الثانية ضد الرها(505هـ/1111م)

يمكن القول إن هذه الحملة جاءت نتيجة ضغط شعبي تمثل بتوافد وفود من حلب على بغداد تنادي بالدعوة للجهاد، وقد اكتسبت هذه الدعوة زخما وقوة بعد أن ناصرها فقهاء وجماهير بغداد الذين خرجوا في تظاهرة واسعة طالبوا فيها بإعلان الجهاد والوقوف في وجه المد الصليبي (الإفرنجي)."فاستغاثوا وانزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه وصاحوا وبكوا ما لحق الإسلام من الإفرنج وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال، ومنعوا الناس من الصلاة". وقد جاءت هذه الاستغاثة من أهالي حلب بعد أن استغل الأمير رضوان أمير حلب انتصارات القوى الإسلامية في الرها لصالحه فاستولى على أغلب أعمال انطاكية وغنم منها، وقد جاءت ردة فعل الإفرنج على أعمال الأمير رضوان بأن هاجم تنكريد الأعمال الشرقية لحلب فأفسد فيها وقتل وأسر أعدادا من أهلها، كما أعاد تنكريد سيطرته على المناطق الجنوبية لأنطاكية وهاجم شيزر وساند ملك بيت المقدس في الهجوم على أعمال دمشق وحصار صيدا حتى اضطر أعيانها للخروج طلبا للأمان (العظيمي: تاريخ، ص380؛ ابن الأثير: الكامل، ج10، ص485؛ ابن العديم: زبدة، ج2، ص155؛ ابن القلانسي: ص 170).

وكان بعض أهالي حلب قد شكا إلى الخليفة المستظهر والسلطان محمد السلجوقي سوء سياسة الملك رضوان فيهم، وتقاعسه عن الجهاد وتخاذله عن مواجهة الفرنج، وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن رضوان هذا بأنه كان" قبيح السيرة ليس في قلبه رأفة ولا شفقة على المسلمين، وأن الفرنجة تغزو وتسبي وتأسر وتأخذ من باب حلب دون أن يخرج اليهم".(ابو المحاسن: ج5: ص 205؛ ابو الفدا: المختصر،ج2، ص425؛ اليافعي:مرآة الجنان،ج3،ص170؛ ابن الجوزي: المنتظم،ج17، ص120؛ابن العديم: بغية الطلب،ج8، ص3665؛سبط: مرآة،ج8، ق1، ص35؛ عاشور:ج1: ص305).

وفي هذا الوقت بلغ الخلاف بين البيزنطيين والصليبيين أشده، فأرسل الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين سفارة إلى بغداد في جمادى الآخرة من عام 504هـ محملة بالتحف والهدايا للخليفة والسلطان كان هدفها التحريض على قتال الصليبيين. وتقديم الوعود بعدم السماح للصليبيين بالعبور من بلاده إلى بلاد المسلمين، وحث المسلمين على عدم التهاون في أمر الصليبيين والجد في قتالهم.(ابن القلانسي: تاريخ، ص174؛ابن الأثير: الكامل، ج10، ص480؛ رونسيمان: ج2: ص196).

لقد أثارت هذه الأحداث المسلمين ضد الخليفة والسلطان محمد. وهاج الناس ببغداد وصاحوا في الخليفة" أما تتقي الله أن يكون ملك الروم اكثر حمية منك للإسلام، حتى أرسل اليك في جهادهم". (الكتبي: عيون التواريخ،ج12، ص1؛ ابن الجوزي: المنتظم،ج17، ص120؛ ابن الأثير: 1980:ج10: ص 483).

وأمام هذا الضغط الشعبي أوعز الخليفة للسلطان محمد بتوجيه العساكر للشام، فأمر السلطان أمراء الأطراف بالتجهز للجهاد، وبعث بإبنه الملك مسعود مع الأمير مودود للموصل، على أن يلحق بهم بقية الأمراء من الأطراف، فشارك في هذه الحملة كل من: سكمان القطبي صاحب أرمينية

وبعض ديار بكر، والأميرين ايلنكي وزنكي ابني برسق وكانا على همذان وما جاورها، والأمير أحمديل الكردي صاحب مراغة، والأمير أبو الهيجاء صاحب أربل، والأمير إياز ابن إيلغازي صاحب ماردين وغيرهم من الأمراء الذين شكلوا تحالف إسلامي جديد لمجاهدة الإفرنج. (الغزي: نهر الذهب، ج3، ص82؛ ابن القلانسي: ص 174؛ ابن الأثير:1980: ج10: ص 485).

لقد جاءت رغبات الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي منسجمة مع دعوات الجماهير من الفقهاء والعلماء والعامة فاستجابوا لتلك النداءات. واسند السلطان السلجوقي إلى واليه على الموصل الأتابك مودود مهمة تشكيل حلف إسلامي جديد يضم حكام الأقاليم في دولة السلاجقة امثال سكمان القطبي صاحب خلاط وتبريز وبعض ديار بكر، وإيلغازي الأرتقي الذي أناب عنه إبنه إياز، والأميران الكرديان احمديل صاحب مراغة، وأبو الهيجاء صاحب اربل، وبعض أمراء فارس بقيادة ايلنكي وزنكي ابني برسق أمير همذان. فكان هذا التحالف تحت قيادة الملك مسعود اسميا. لكن القيادة الفعلية كانت لمودود حاكم الموصل. (البنداري:تاريخ دولة سلجوق،ص180؛ ابن الجوزي: المنتظم،ج17، ص120؛ ابن الأثير: 1980:ج8: ص 263: حوادث سنة 505هـ؛ الرهاوي: تاريخ، ص174).

استهل هذا التحالف نشاطه العسكري في مطلع عام 505هـ/1111م بدخول عدة مواقع عسكرية صليبية إلى الشرق من الفرات منها حصن كادتيل وحصون اقليم شبختان إلى الشرق من الرها اضافة إلى حصن شناو، ثم فرض حصار على مدينة الرها بعد أن اكتمل وصول الإمدادات الإسلامية، لكن منعة حصونها وصمود أهلها بسبب تحصينها وتخزين الطعام والميرة فيها دفعت بمودود إلى أن يعبر الفرات غربا، فهاجم تل باشر وحاصرها حصارا محكما لمدة خمسة وأربعين يوما محاولا فتح أبوابها وتجاوز اسوارها. لكن منعة حصونها حالت دون هدفه، فرفع الحصار عنها ثم تحصن خلف اسوار شيزر متجنبا خوض معركة مكشوفة مع الصليبيين نظرا إلى تناقص أعداد قواته، كما أنه لم يكن راغبا في قضاء فصل الشتاء بعيدا عن قاعدته الموصل. وفي أثناء الانسحاب باتجاه تل باشر كانت قوات المسلمين تدمر كل ما يصادفها من ضياع ومزارع للصليبيين. (الرهاوي: تاريخ ص 175؛سبط: مرآة، ج8،ق1، ص 38؛ اليافعي: مرآة،ج3،ص177؛ابن الأثير: الكامل، ج10، ص485؛ الرويضي،إمارة، ص 397؛ Stevenson::p.91)

يذكر ابن القلانسي أن المسلمين اشرفوا على دخول تل باشر واخذها من صاحبها جوسلين، لولا اتصاله بأحمديل صاحب مراغة وعرضه مبلغ من المال عليه مقابل الرحيل عن تل باشر الذي أجابه لذلك. (ابن القلانسي: ص175؛ الرهاوي: تاريخ، ص175؛ ابن العديم: بغية الطلب،ج3،ص1300؛ سبط: مرآة،ج8،ق1،ص35؛ ابن العديم: زبدة،ج2،ص158).

وفي الوقت نفسه وصلت إلى مودود كتب الملك رضوان صاحب حلب يستنجد به على الإفرنج ويطلب منه الإسراع لمساعدته على الصمود أمام هجمات تانكريد صاحب انطاكية، فقرر مودود في ضوء هذه الظروف الانسحاب من تل باشر والإسراع لنجدة رضوان صاحب حلب، ولم تكد عساكره تصل إلى مشارف حلب حتى فوجئ مودود بتغيير في سياسة رضوان وكشفه عن وجهه الحقيقي ورفضه للتعاون معه في حرب الإفرنج، بل اظهر أنه يخشى خطر السلاجقة أكثر من خشيته لخطر تانكريد نفسه. فاغلق ابواب حلب في وجه عساكر مودود، وهناك اشارات تفيد باتصاله مع تانكريد وتحالفه معه ضد مودود ومن معه من الأمراء المسلمين. ويذكر ابن القلانسي أن رضوان عمد إلى اخذ رهائن من حلب ووضعهم في قلعتها خوفا من تسليم البلد لمودود.(العظيمي: تاريخ، ص380؛ابن القلانسي: تاريخ، ص 175؛ ابو الفدا:المختصر،ج2،ص225؛Fink.p400؛Setton:1918.p400)

وقد أثار تصرف رضوان هذا سخط أهل حلب الذين اطلقوا السنتهم في سبه، فاشتد خوفه من تسليمهم للمدينة، وبقيت ابواب حلب مغلقة مدة سبع عشرة ليلة. ولم يجد مودود امام تصرف رضوان إلا مغادرة حلب إلى معرة النعمان حيث التقى هناك بطغتكين صاحب دمشق الذي كان يأمل بمهاجمة طرابلس بمساعدة مودود، إلا أن طغتكين ما لبث أن خشي هو الآخر عساكر مودود وخافهم على نفسه، حيث يذكر ابن الأثير أن طغتكين" اطلع على نيات فاسدة في حقه، فخاف أن تؤخذ منه دمشق، فشرع في مهادنة الإفرنج سرا". اما المؤرخ ابن العديم فقد ارجع خلاف طغتكين مع العساكر الإسلامية إلى سعي رضوان صاحب حلب في الفتنة بين الأمراء" فافسد ما بينه وبينهم وظهرت للأتابك منهم الوحشة، فسار في حملة مودود صاحب الموصل، وثبت له مودود ووفى له". ومهما تكن اسباب الخلاف بين طغتكين وأمراء الجيش الإسلامي فانه فشل في اقناعهم للمسير نحو طرابلس وقتال الإفرنج هناك، رغم تعهده لهم بإمدادهم بما يحتاجونه من مؤون وإنزالهم في دمشق وقت الشتاء. فتفرقوا إلى بلادهم وبقي مودود مع طغتكين حيث نزلا على نهر العاصي. (ابن الأثير:1980:ج10: ص 487؛ ابن العديم:ج2: ص160؛أبو شامة: الروضتين،ج1،ص68؛ سبط: مرآة،ج8، ق1،ص35).

إن ما حدث من تحالف بين بعض قادة المسلمين مع الإفرنج في بلاد الشام والجزيرة جاء نتيجة خوفهم من انتزاع اقطاعاتهم ومن هذا تسوية الأمير رضوان والأمير تنكريد لخلافاتهما ونهج الأمير طغتكين نهج رضوان في ذلك. وبذلك تقلص التحالف الإسلامي في الوقت الذي قويت فيه وحدة الإفرنج(الشارتري:ص149؛ الرهاوي: تاريخ، ص275؛ الرويضي: إمارة الرها،ص402).

وفي الوقت الذي تفرقت فيه العساكر الإسلامية، كان الصليبيون يجمعون شملهم ويوحدون صفهم لمواجهة المسلمين، فاجتمعت القوى الصليبية المتشكلة من انطاكية، وطرابلس، والرها على الضفة الشرقية لنهر العاصي، في حين عسكر الأتابك مودود على الضفة الغربية للنهر بتشجيع من صاحب شيزر، فاضطر مودود أمام هذه الحشود الصليبية إلى التحصن في أسوار شيزر حيث استقبله سلطان بن منقذ صاحب شيزر مع طغتكين وبالغ في إكرامهما وحرضهما على قتال الإفرنج، وفتح لهما أبواب مدينته، ثم ما لبث المسلمون أن عبروا النهر إلى الضفة الشرقية فاشتبكوا مع

الصليبيين(الفرنجة) في مناوشات عنيفة انسحب على أثرها مودود عائدا إلى الموصل. كما غادر بقية الأمراء إلى إماراتهم. وقد ادرك مودود أن لا طاقة له بمواجهة الإفرنج بعد تفرق العساكر الإسلامية عنه.(الرهاوي: تاريخ، ص277؛ الشارتري: ص149؛ ابن منقذ: الإعتبار، ص88؛ ابن بالعديم: زبدة،ج2، ص161؛ابن القلانسي: ص177؛ Setton:1918.p400).

وهنا لابد من الإشارة إلى أنعدم تمكن الأتابك مودود من طرد الصليبيين (الفرنجة) من الرها للمرة الثانية، إنما يعود أولا وأخيرا إلى عدم قيام تحالف حقيقي صادق بين الأمراء المسلمين، والواضح أنه ما إن انتشرت أخبار الحملة الثانية على الرها في الأوساط الإسلامية، حتى حاول كل أمير أن يستغلها لصالحه فاندفع كل من سلطان بن منقذ صاحب شيزر، ورضوان صاحب حلب، وطغتكين صاحب دمشق، كل منهم ينسب الفضل لنفسه ما أدى بالمحصلة إلى ضياع أهداف الحملة. فانفرط عقد التحالف الإسلامي وتفرقت جيوشهم وفشلت أهداف الحملة.إضافة إلى الخلافات التي ظهرت بين أمراء الجيش الإسلامي من جهة وبين أمراء الشام من جهة أخرى، فتفرقت عساكرهم مما أضعف من قوة مودود. وبالمقابل يرسل تانكريد امير انطاكية برسائل استغاثة إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس، ولأمراء طرابلس والرها وتل باشر يدعوهم فيها للتوحد في مواجهة المسلمين الأمر الذي عجل في انسحاب المسلمين. (ابن العديم: زبدة، ج2، ص173؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص346؛ الرويضي: إمارة الرها، ص404).

تقدر القوات الصليبية التي اتحدت في مواجهة مودود والعساكر الإسلامية بنحو ستة عشر الف مقاتل، ويعلق ابن القلانسي على هذا الجمع الهائل من الصليبيين بأنهم" استفادوا من حروبهم ضد المسلمين، فبعد التباين والتنافر والخلاف صاروا يدا واحدة وكلمة متفقة على الإسلام واهله" ومن هنا نرى أن ابن القلانسي قد اوضح أن المسلمين خرجوا متناحرين، وبقي مودود ليحمل مهمة مواجهة هذه الجموع لوحده، في حين أن المحنة صلبت عود الصليبيين، فاجتمعوا بعد أن كانوا متناحرين متباغضين. (ابن القلانسي: ص177).

يلاحظ أن التحالف الإسلامي في حملة مودود الثانية على إمارة الرها لم يكن بمستوى التحالف الأول رغم أن قائدهما واحد ويعزى ذلك إلى تفكك قادة المسلمين وانقسامهم مقابل اجتماع كلمة قادة الإفرنج ووحدتهم.

حملة الأتابك مودود الثالثة ضد الرها(505هـ/1112م)

عاد مودود إلى بلاده ليستأنف الجهاد في حدود امكاناته هو، منتهجا سياسة تجويع الصليبيين في الرها وارهاقهم، وهاجم الأتابك مودود الرها للمرة الثالثة فجأة مع غياب الإفرنج والأرمن عنها. وذلك في ذي القعدة من عام(505هـ/1112م)، وفي الطريق جمعت قواته حصاد الريف الصليبي، ورعت زروعه وعاثت في بساتينه وحقوله، وفرض عليها حصارا وأمام صمودها وإصرار أهلها على المقاومة بزعامة بلدوين دي بورج ترك مودود قوة عسكرية حولها وشرع في مهاجمة سروج وذلك في شهر محرم من نفس العام، ويبدو أن مودود أدرك اهمية سروج بوصفها المعقل الثاني للصليبيين شرقي الفرات والأكثر اهمية بعد الرها. إضافة إلى رغبته في حصار إمارة الرها إقتصاديا وتجويع سكانها بعد أن فشلت أساليب الهجوم في اقتحامها ولهذا أمر القوات الإسلامية بتدمير كل ما تقع عليه أيديهم من محاصيل زراعية. كما هدف إلى إبعاد خطر جوسلين عن الحامية العسكرية الإسلامية التي تركها على الرها. (الرهاوي: تاريخ، ص178؛ وليم الصوري، ج1، ص4514؛ ابن الأثير:1980: ج8: حوادث 506هـ).

وما إن علم مودود بتراخي المدافعين عن الرها وبفرار جوسلين حتى عاد اليها فجرا ودخلها ومكنه الأرمن من أحد ابراجها الشرقية، فاستولى على برجين آخرين مجاورين، بينما تظاهرت قواته بمهاجمة الجهة الغربية من المدينة تضليلا للصليبيين، فاكتشفت الحيلة وأبلى جوسلين في استرداد الأبراج الثلاثة بلاء مشهورا، وكان جوسلين قد اتجه نحو الرها بعد فراره من سروج، فانتقم جوسلين من الأهالي والمتآمرين من الأرمن شر انتقام فاضطر مودود لرفع الحصار عن الرها والعودة إلى بلاده وفي طريق عودته استولى على تل موزون. على أن جهاد مودود أوقع العداء بين الصليبيين والأرمن وأدى إلى انقسام الصليبيين على أنفسهم، ذلك أن سياسة التجويع والإرهاق التي دأب عليها مودود افقرت الريف الصليبي حتى أكل بلدوين دي بورج خبز الشعير. (ابن القلانسي: ص181؛مؤلف سرياني رهاوي(زكار)،ج2،ص473؛ الرهاوي: تاريخ، ص179؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول:1890: ص199).

ومن الواضح أن مودود قد اندفع في هجومه على سروج، ولم يحسب عواقب ذلك، حيث أدى تصرفه هذا إلى تقسيم قواته بين محاصر للرها ومهاجم لسروج مما أضعفها، وانعكس على ادائها، ومودود بهذا التصرف يكون قد تخلى عن حذره السابق في مواجهة الصليبيين على نحو مكشوف.

لقد قاد تصرف الأتابك مودود إلى نتيجة مفادها استغلال جوسلين صاحب تل باشر للموقف، فلحق بالقوات الإسلامية وهزمها وقتل منها عددا كبيرا. ما دفع بمودود للتراجع نحو الرها من جديد، غير أن جوسلين كان قد سبقه اليها لتقديم المساعدة على الدفاع عنها. ولم تكن هذه الحملة ذات اهمية بل إن مودود بعدها اكتفى بمراقبة حدود الجزيرة ومسالك الشام تحقيقا لرغبة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي. (ابن القلانسي: ص181؛ ابن الأثير:1980:ج10: 492).

ويعلق المؤرخ Fink على حملة مودود الثالثة وحصاره للرها بقوله" لو قدر لمودود الاستيلاء على الرها لسبق بذلك دخول عماد الدين زنكي الذي حدث 1144م ولشكل استيلاؤه عليها نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية".(Fink:1953.P.23).

لقد نجح جوسلين بالاتحاد مع بلدوين الثاني وعملوا سويا على تحرير الأبراج التي سلمها الأرمن للقوات الإسلامية، وقد كشف تآمر الأرمن مع الأمير مودود عن مدى الانحلال الداخلي الذي لحق بإمارة الرها ومدى التنافر الأرمني الإفرنجي في التعايش داخل الإمارة ولذلك جاء انتقام جوسلين وبلدوين الثاني قاسيا بحق السكان الأرمن كما يشير لذلك مؤرخهم متى الرهاوي (الرهاوي: تاريخ، ص180).

موقف الأرمن من حملة الأتابك مودود الثالثة

في أثناء سير الأحداث في حملة الأتابك مودود الثالثة على الرها، عمل الأرمن المتواجدون فيها على الاتصال بالأتابك مودود، رغبة في التخلص من حكم الصليبيين، وعرضوا تعاونهم في الاستيلاءعلى القلعة الواقعة في القطاع الشرقي من الرها، والمسيطرة على المدينة بأكملها غير أن وصول جوسلين الذي عمل على احتلال القلعة ورد الأتراك عنها حال دون نجاح هذا التعاون.. (مؤلف سرياني رهاوي(زكار)،ج2،475؛ الرهاوي: تاريخ، ص179؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول:1890:ص199).

لقد كادت خدمات الأرمن وتعاونهم مع الأتابك مودود تؤتي ثمارها، إذ شرع المسلمون في تسلم القلعة واخذوا يتوافدون منها إلى داخل حصون الرها، واخذ مودود يستعد لدخولها غير أن جوسلين نجح في قراءة المشهد فجاء مسرعا من سروج لنجدة الرها، فتراجع مودود امام تجمع القوات الصليبية وطفق منسحبا إلى الموصل مرة أخرى.

لقد نظر الصليبيون إلى موقف الأرمن على أنه مؤامرة تستوجب العقاب، فتشدد كل من بلدوين الثاني وجوسلين في معاملتهم واتخذوا اجراءات قاسية وصلت حد الترحيل الجماعي والقتل. والحقيقة أن موقف الأرمن هذا قد كشف عن مدى تدهور الأوضاع في الرها. (الرهاوي: تاريخ، ص180؛ابن العبري: تاريخ مختصر الدول:1890: ص199).

وكان من نتائج ذلك أن استنفر الأرمن في مناطق تواجدهم مثل شمالي العراق وجنوب غربي اسيا وشرقها، وخشي الصليبيون من ازدياد نفوذ كوغ باسيل واتساع نفوذه، فتحالف بلدوين الثاني وتانكريد ضده، ولم تنته حالة الاضطراب بين الطرفين إلا بتوقيع الصلح بينهما في العام التالي لحملة مودود.. (الرهاوي: تاريخ، ص180؛ابن العبري: تاريخ مختصر الدول:1890: ص199).

لقد أثر طرد الأرمن من الرها سلبا في مناحي الحياة العامة فيها فأدرك بلدوين الثاني قيمة تواجد الأرمن في المدينة. وقد دفعت اجراءات الصليبيين تجاه الأرمن إلى تطلع الأرمن للتقارب مع المسلمين والتحالف معهم وقد جرى ذلك بالفعل بعد موت الأتابك مودود، إذ تحالف الأرمن مع السلاجقة فيما بعد، مما دفع بلدوين الثاني للعمل بالقضاء على الإمارات الأرمنية في أطراف العراق وبلاد الشام لاحقا. (ابن العبري: تاريخ مختصر الدول:1890: ص199).

لقد جاءت حملات مودود بواقع ثلاث حملات على إمارة الرها وهذا ما تشير إليه معظم المصادر الغربية، ويتعارض هذا مع ما ذهب إليه إبن الأثير الذي يتحدث عن حملتين فقط ولعله وقع في الخلط بين الحملة الثانية والثالثة للأتابك مودود.

حملة مودود ضد إمارة بيت المقدس(507هـ/1113م)

في هذه الفترة تعرضت مدينة صور في بلاد الشام لعدوان الملك بلدوين الصليبي ملك بيت المقدس الذي جمع الصليبين حول رايته بعدما أدرك الخطر الإسلامي على الشام، فاستنجد اهلها بطغتكين والتمسوا منه الحماية فقام طغتكين بالاتصال بالأفضل بن بدر الجمالي الوزير الفاطمي في مصر وبين له " أن من يتولى أمرها ويذب عنها ويحميها، بادرت بتسليمها اليه". ولما تقاعس الفاطميون عن النصرة عين عليها وال يدعى مسعود صمد أمام حصار بلدوين للمدينة فدخلها طغتكين وراسل مودود طالبا نصرته على بلدوين الأول. (ابن القلانسي: ص 182).

لقد كان قدوم مودود لبلاد الشام نقطة تحول في تاريخ حركة الصحوة الإسلامية وقد ترتب على ذلك مهاجمة الصليبيين في الشام وقطع امدادات الرها، ونقل مسرح النضال لأرض الشام. وفي الطريق لنصرة طغتكين ظهر مودود بمظهر الزعيم الحقيقي للجهاد بحكم كونه ممثلا للسلطان الأعظم وبحكم إخلاصه للقضية الإسلامية وجهوده الموفقة في مواجهة الصليبيين، وفي سلمية وعلى بعد مرحلة من حمص التقى مودود بطغتكين واتفق معه على أن يذهبا بالجهاد إلى أقصى مداه، ونعني بذلك القيام بمحاولة على بيت المقدس نفسها، فزحف مودود جنوبا فانضم إليه أمراء شيزر، وحماه، وحمص، وفي دمشق اخرج مصحف عثمان وحمله معه زاحفا نحو بيت المقدس، وفي ذلك دلالات لوضع القضية الإسلامية موضعها الصحيح، وأن على الأمراء أن يقاتلوا نصرة للإسلام وبعدا عن المصالح الشخصية، واقترب مودود في زحفه من مملكة بيت المقدس فسعى ملكها الصليبي لاسترضاء طغتكين وعرض عليه عروضا سخية، غير أن طغتكين أجاب بأن ذلك فات أوانه، فأرسل بلدوين يطلب نجدة طرابلس وانطاكية ولم يطلبها من الرها لعلمه بمدى الضعف الذي اصابها نتيجة جهود مودود.(ابن القلانسي: ص 184؛ ابن الأثير: 1980: ج10: ص 208).

بقي هاجس فكرة مقاومة الوجود الصليبي راسخا في فكر الأتابك مودود دون يأس، رغم المحاولات المتكررة، وهي المهمة التي عهد إليه بها السلطان محمد السلجوقي من قبل بعدّه ممثلا له في الجزيرة وبلاد الشام، فتحرك على رأس تحالف إسلامي جديد على إثر استنجاد طغتكين صاحب دمشق به، بعد أن تعرضت إمارته لهجمات صليبية شديدة نفذها صليبي بيت المقدس والذين قدموا من وادي التيم إلى البقاع ووصلوا مشارف بعلبك. وضم

التحالف الإسلامي الجديد كل من تميرك صاحب سنجار وأياز بن إيلغازي أمير ماردين، وكانت وجهة الأتابك مودود هذه المرة بيت المقدس وذلك في شهر محرم من عام507هـ/ حزيران 1113م).(ابن الفرات: ج1: ص77).

أدرك بلدوين الأول الخطر القادم فأرسل طالبا العون من الإمارات الصليبية شمالا، ثم ما لبث أن خرج مسرعا باتجاه الشمال نحو طبرية دون أن ينتظر وصول العون والمدد الصليبي. ولعله كان يخشى توغل الجيوش الإسلامية في مملكته مما يهدد بيت المقدس مباشرة، إضافة إلى أن عسقلان كانت تحت سيادة الفاطميين آنذاك فخشي بلدوين الأول من تطويق بيت المقدس من الجيش السلجوقي وقوة الفاطميين. (ابن الأثير:1980: ج10: ص 496).

معركة الصنبرة (محرم 507هـ/1113م)

مع وصول الأخبار بتحرك بلدوين الأول من الجنوب، اسرع الأتابك مودود لاتخاذ مكانا مناسبا للقتال فوقع اختياره على شبه جزيرة معروفة بالأقحوانة، ثمنصب كمينا محكما لبلدوين الأول على جسر الصنبرة. (عاشور: ص 311).

وفي يوم 13 محرم من عام 507هـ/1113م دخل بلدوين الأول في الكمين دون أن يترك خلفه حامية عسكرية تحمي ظهره من الخلف، ولعله الخطأ الذي ارتكبه وأدى إلى هزيمته.(الرهاوي: تاريخ، ص185؛ ابن القلانسي: ص 185).

نجح المسلمون بقيادة مودود في استدراج بلدوين الأول إلى اراضي دمشق وعلى جسر الصنبرة دارت رحى معركة انتهت بانتصار المسلمين ولحقت بالصليبين هزيمة ساحقة، ارتد على أثرها بلدوين الأول إلى طبرية وهناك وصله نجدة روجر أمير انطاكية وبونز أمير طرابلس في حين غاب أمير الرها لحاجة إمارته للحماية. (الرهاوي: تاريخ،ص184؛ ابن القلانسي: ص185).

نجح المسلمون في قطع جسر الصنبرة، ووقفوا امام الإفرنج في ثلاث جولات حربية انتصروا فيها وقتل من الإفرنج" تقدير ألفي رجل من الأعيان ووجوه الأبطال والشجعان، وملكوا ما كان نصب من خيامهم". ويعدد فولشر قديس شارتر عدد القتلى بثلاثين الف فارس، واثني عشر الفا من المشاة. وقد جرى أسر بلدوين نفسه وحصل معسكر مودود على غنائم كثيرة، كما غرقت أعدادا كبيرة من جيش بلدوين بالبحيرة فاختلط الدم بالماء حتى امتنع الناس عن شرب الماء، وفر من نجا منهم إلى طبرية. (.Fulcher of Charter:1913.p569؛الرهاوي: تاريخ،ص185؛ ابن العديم: ج1: ص 161).

عندئذ وصلت بقية الجيوش الصليبية إلى بلدوين فلاموه على تسرعه في لقاء المسلمين. وأدركوا عدم قدرتهم على مواجهة المسلمين في معركة فاصلة فانسحبوا إلى جبل المنارة غربي طبرية وتحصنوا به مدة ستة وعشرون يوما والمسلمون يحاصرونهم ويرمونهم بالنشاب. وقد قطعوا الميرة عنهم لدفعهم للخروج للقتال. وهكذا أتاح الموقف السيء الذي أحاط بالإفرنج الحرية لمودود في شن هجماته على المراكز والقلاع الصليبية المنتشرة في اقليم الجليل. فوصلت غارات المسلمين إلى بيسان،" ونهبوا بلاد الإفرنج بين عكا والقدس وخربوها". ويعلق شارتر على ذلك بقوله " إن العرب اتجهوا جماعات والتفوا حول إخوانهم في الدين وإن الصليبيين لم يجرؤوا على مغادرة اسوار مدنهم فلم يتمكنوا من الاتصال بالملك بلدوين كما لم يتمكنوا من حصد المحاصيل التي جادت بها الأرض في ذلك العام. (الشارتري:ص179). وازداد موقف الصليبيين حرجا بعدما هاجمت حامية عسقلان بيت المقدس مستغلة غياب الملك بلدوين الأول ووجوده قرب طبرية فوصل الجيش الفاطمي إلى اسوار بيت المقدس. وفي أثناء طريقه نهب وخرب ودمر الريف الصليبي. ولما وفدت الوفود الصليبية والحجاج الغربيين على بلدوين لمواساته بعد واقعة الصنبرة واصل المسلمون زحفهم باتجاه طبرية دون أن يغامروا بمواجهة الصليبيين خاصة وأن فصل الشتاء كان قد دخل فانسحبت القوات الإسلامية وعادت إلى دمشق. (الصوري:ص285؛ابن القلانسي: ص 186؛ Albert. Of Aix:p.696).

من نتائج معركة الصنبرة نجاح المسلمين في توظيف عامل المفاجأة في تلك المعركة، الذي كان له دورا في تغيير مجرى الأحداث لصالح المسلمين، وسحق الجيش الصليبي، وهرب قائده بلدوين الأول وتدمير أهم فرق الجيش الصليبي، وغنيمة المسلمين للكثير من الغنائم والسلاح.

لقد أعاد الأتابك مودود للمسلمين الثقة بأنفسهم فنقلهم من موقع المدافعين إلى المهاجمين في علاقاتهم مع الصليبيين، كما اظهر قيمة العمل الموحد واهمية وحدة المسلمين في مواجهة اعدائهم. فكان يوم الصنبرة يوما رد فيه الأتابك مودود كل الإخفاقات التي أصابته على ابواب الرها عبر محاولاته المتكررة لدخولها، كما كان هذا النصر بداية لظهور نجم قائد آخر حضر هذه المعركة وأبلى فيها بلاء حسنا، نجم سطع في مقاومة المد الصليبي لاحقا وهو القائد عماد الدين زنكي.

استشهاد الأتابك مودود:

يقول ابن الأثير: " وأذن الأمير مودود للعساكر في العود والاستراحة، ثم الاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة، وبقي في خواصه، ودخل دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول ليقيم عند طغتكين إلى الربيع، فدخل الجامع يوم الجمعة في ربيع الأول في 507هـ / سبتمبر 1113م، ليصلي فيه وطغتكين، فلما فرغوا من الصلاة، وخرج إلى صحن الجامع، ويده في يد طغتكين، وثب عليه باطني فضربه فجرحه أربع جراحات وقُتل الباطني، وأخذ رأسه، فلم يعرفه أحد، فأحرق. وكان مودود صائما، فحمل إلى دار طغتكين، واجتهد به ليفطر، فلم يفعل، وقال: "لا لقيت الله إلا صائمًا"، فمات من

يومه رحمه الله. .، وكان خيّرًا، عادلًا، كثير الخير". (ابن الأثير: 1980: ج10؛ ص497؛ ابن العبري: ص 199).

وهكذا دخل مودود بن التونتكين مدينة دمشق في ربيع الأول 507هـ / سبتمبر 1113م، عازمًا أن يبقى فيها فصل الشتاء؛ ليستغل هذه الفترة في تجميع جيوش جديدة والاستعداد لمواجهة جديدة مع الصليبيين. هذا ما كان يريده، لكنَّ أعداء الأمة ما كانوا يريدون ذلك، بل أضمروا صورة مقيتة من الغدر قلَّ أن نجدها في صفحات التاريخ!! وما يحزن القلب حقًّا أن أعداء الأمة الذين نعنيهم في هذا الموقف ليسوا من الصليبيين، لكنهم كانوا من أبناء الإسلام!! أو من الذين يدعون ظاهريًّا أنهم من أبناء الإسلام!!. (ابن القلانسي: تاريخ،ص 187؛ ابن الأثير: الكامل،ج10،ص490).

لفد اثار مقتل مودود وجهات نظر عديدة بين المؤرخين، والغريب أن معظم الآراء اتهمت طغتكين بتدبير قتله ويبرز ابن الأثير كمؤرخ يؤيد هذا الرأي. حيث يقول" لأنه خافه فوضع عليه من يقتله". ولعل قيام طغتكين بقتل القاتل على الفور واحراق جثته دليلا على محاولة طمس معالم الجريمة، وما يؤيد ذلك ما كان من تحالف طغتكين فيما بعد مع الصليبيين. (ابن الأثير: 1980: ج10: حوادث سنة 507).

في حين ابعد ابن القلانسي والعظيمي تهمة تدبير القتل عن طغتكين مؤكدين على الصداقة بين طغتكين ومودود وحزن طغتكين وانزعاجه لمقتل مودود، وشاركه في وجهة النظر هذه كل من سبط ابن الجوزي وابو المحاسن ابن تغري بردي. (ابن القلانسي: ص 187؛ العظيمي: تاريخ،ص382؛ سبط: مرآة،ج8،ق1،ص44؛).

اما المؤرخون الغربيون أمثال متى الرهاوي والبرت آخن ووليم الصوري فقد نسبا تهمة تدبير القتل لطغتكين، في حين نفاها عنه فوشر قديس شارتر ولعل هذا الإجماع على الاتهام كان مدفوعا بالرغبة في توسيع هوة الخلاف بين قادة المسلمين. (الرهاوي: تاريخ، ص186؛ الصوري:ص286؛Fink: p.26)

وقد وقف بعض المؤرخين موقف الحياد من قضية اغتيال مودود، حيث اكتفوا بذكر عملية الاغتيال على يد أحد رجالات الباطنية ومن هؤلاء ابن الفرات وابن العبري. في حين أننا لا نستطيع إثبات أو نفي التهمة عن طغتكين، ولكن هناك حدثا سياسيا لا بد من أخذه بعين الاعتبار، وهو أن طغتكين قد استقل بدمشق عن السلطة السلجوقية حتى وفاته 1128م، اضافة إلى اتصاله بالصليبيين فيما بعد كل ذلك يرسخ الشكوك حوله في عملية الاغتيال.

ومهما يكن من أمر فإن السلطان محمد السلجوقي القى بتبعة الاغتيال على طغتكين، ونظر المسلمون عامة وأهل الشام خاصة إلى هذا الاغتيال على أنه كارثة نزلت بهم أقاموا لها المآتم العامة. ولا شك في أن هذا الاغتيال قد جعل الصليبيون يتنفسون الصعداء، في حين أدرك المسلمون أن تغليب المصالح الخاصة لدى امرائهم كان من اسباب هذا الاغتيال.

الخاتمة والنتائج:

- وخلاصة القول ان أتابكية مودود على قصرها كانت نقطة تحول في تاريخ الصراع الاسلامي الصليبي.
- أدرك مودود مبكرا أهمية العمل على اسقاط إمارة الرها بعدّها أول الإمارات الإفرنجية التي أسست في المشرق الإسلامي خاصة وأنها امتدت على نطاق الجزيرة الفراتية وشمال بلاد الشام مشكلة حاجزا بين الإمارتين الإسلاميتين حلب والموصل ومسيطرة على بقعة جغرافية لها أهميتها الإستراتيجية في السيطرة على طرق المواصلات.
- جاء جهاد مودود استكمالا لحركة الجهاد الإسلامي ضد الإفرنج في الجزيرة وشمال الشام التي بدأها الأراتقة واستكملها من بعدهم قادة الجهاد من حكام إمارة الموصل أمثال الأتابك مودود.
- خلصت الدراسة إلى أن حركة الجهاد ضد الإفرنج تتطلب القضاء على النزعات الإنفصالية وضرورة الوحدة الإسلامية وهذا ما سعى له الأتابك مودود حيث أدرك مبكرا اهمية الوحدة بين الموصل وحلب.
- جاء دور الأرمن محوريا في الصراع على إمارة الرها بعدّهم يشكلون السواد الأعظم من سكان الجزيرة الفراتية وشمال الشام.
- جاءت حملات الأتابك مودود على إمارة الرها بواقع ثلاث حملات وليس كما يشير ابن الأثير بأنهما حملتان فقط سيما وأن معظم المصادر الغربية تشير إلى ثلاث حملات.
- جعل مودود من فكرة الجهاد حقيقة واقعة بعد ان كانت مجرد حلم يراود المسلمين.
- نجح مودود في اتباع سياسة تجويع وارهاق خصمه تلك السياسة التي مهدت لسقوط الرها بعد ذلك بواحد وثلاثين عاما.
- وقف مودود مدافعا عنيدا في وجه الخطر الصليبي على الشام، ويمكن عدّ معركة الصنبرة مقدمة لمعركة حطين كما يمكن عدّ جهود مودود في مجال توحيد القوى الإسلامية مقدمة لاندماجها تحت راية صلاح الدين.
- لقد حمل مودود علم الجهاد ما يقارب نصف المدة التي تولى فيها أتابكية الموصل والجزيرة دفاعا عن دينه فاستحق بذلك لقب "شرف الدين".

المصادر والمراجع

الجزري، ا. (1980). *الكامل في التاريخ*. بيروت: دار الكتاب العربي.

الشيباني، ع. (1963). *التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية*. القاهرة: مكتبة عين الجامعة.

منقذ، أ. (1981). *الإعتبار*. بيروت: دار الكتب العلمية.

البنداري، ف. (1245). *تاريخ دولة آل سلجوق للأصفهاني*. مصر: مطبعة الموسوعات.

ابن الجوزي، ع. (1992). المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. (ط1). بيروت: دار الكتب العلمية.

قزاوغلي، ي. (1984). *مرآة الزمان في تاريخ الأعيان*. دمشق: دار حسان.

أبو شامه، ع. (1956). *الروضتين في أخبار الدولتين النورية* . القاهرة: دار الكتب العلمية.

ابن شداد، م. (1956). *الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة*. دمشق: دار الثقافة السورية.

ابن العديم، ك. (1954). *زبدة الحلب*. دمشق: جزآن.

ابن العديم، ك. (1988). *بغية الطلب في تاريخ حلب*. دمشق: دار الفكر.

العظيمي، م. (1938). *تاريخ العظيمي*. المكتبة الشاملة.

الغزي، ك. (1926). *نهر الذهب في تاريخ حلب*. حلب: المطبعة المارونية.

ابو الفدا، ا. (1968). *المختصر في أخبار البشر*. (ط1). مصر: مكتبة المثنى.

ابو المحاسن، ج. (1930). *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.

ابن الفرات، م. (1995). *تاريخ ابن الفرات*. مصر: المطبعة الامريكانية.

ابن القلانسي، ح. (1908). *ذيل تاريخ دمشق*. بيروت: مطبعة الاباء اليسوعيين.

الكتبي، م. (1977). *عيون التواريخ*. بغداد: وزارة الثقافة و الاعلام.

ابن واصل، م. (1995). *مفرج الكروب في أخبار بني أيوب*. (ط21). مصر: مطبعة جامعة فؤاد الاول.

اليافعي، ع. (1918). *مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعدّ من حوادث الزمان*. حيدر اباد: دائرة المعارف العثمانية.

الرهاوي، م. (2009). *الإفرنج، الصليبيون، الأرمن*. الأردن: حمادة.

ابن العبري، ج. (1890). *تاريخ مختصر الدول*. بيروت: دار المشرق.

الشارتري، ف. (1990). *تاريخ الحملة إلى القدس*. (ط1). عمان: دار الشروق.

سرياني، ر. (1984). الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية. (ط1). دمشق: مطبعة الملاح.

جوزيف، ن. (1963). *العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى*. مصر: دار النهضة العربية.

رنسيمان، س. (1960). *الحروب الصليبية*. بيروت: جزآن.

الرويضي، م. (2002). *إمارة الرها الصليبية*. عمان.

عاشور، س. (1978). *الحركة الصليبية*. القاهرة: جزآن.

فيليب، ح. (1953). تاريخ العرب مطول. بيروت: دار الكاشف.

References

Albert, A. (n.d). *Liber Christianae expedition*. Restitution: Sanctate hierosoly mitanae.

Fink, H. S. (1953). MAWDŪD I OF MOSUL, PRECURSOR OF SALADIN. *The Muslim World*, *43*(1), 18-27.

Edgington, S. B. (Ed.). (2007). *Albert of Aachen: Historia Ierosolimitana*, *History of the Journey to Jerusalem*. Oxford University Press.

Michel, S. (1899). *Chronique*. Paris.

Stevenson, W. (1907). *Crusadersin the east*. Cambridge.

Setton, K. (1918). *A historey Of the Crusades*. (2nd ed.). Pennsyelvenia.